**تحليل ومناقشة نص فلسفي**

**- الشخص والهوية –**

**النص:**

" أي شيء أنا إذن؟ أنا شيء مفكر، وما الشيء المفكر؟ إنه شيء يشك، ويفهم، ويتصور، ويثبت، وينفي، ويريد، ويتخيل، ويحس أيضا. إنه ليس بالأمر اليسير أن تكون هذه كلها من خصائص طبيعتي، ولكن لم لا تكون من خصائصها الست أنا ذلك الشخص نفسه الذي يشك الآن في كل شيء تقريبا، وهو مع ذلك يفهم بعض الأشياء ويتصورها ويؤكد انها وحدها صحيحة، وينكر سائر ما عداها، ويريد أن يعرف غيرها، ويأبي أن يخدع ويتصور أشياء كثيرة على الرغم منه أحيانا، ويحس منها الكثير أيضا بواسطة أعضاء الجسم؟ فهل هنالك من ذلك كله شيء لا يعادل في صحته اليقين بأنني موجود، حتى لو كنت نائما دائما وكان من منحنى الوجود يبدل كل ما في وسعه من مهارة لإضلالي؟ وهل هنالك أيضا صفة من هذه الصفات يمكن تمييزها عن فكري أو يمكن القول بأنها منفصلة عني؟ فبديهي كل البداهة أنني أنا الذي أشك، وأنا الذي أفهم، وأنا الذي أرغب، ولا حاجة إلى شيء لزيادة الإيضاح. ومن المحقق كذلك أن لدي القدرة على التخيل: لأنه على الرغم من أنه من الممكن. كما افترضت فيما سبق - أنه لا شيء مما أتخيل بحقيقي، فإن هذه القدرة على التخيل لا تنفك أن تكون جزءا من فكري، وأنا أخيرا الشخص عينه الذي يحس، أي الذي يدرك أشياء معينة بواسطة الحواس... من هنا بدأت أعرف أي شيء أنا، بقدر من الوضوح والتميز يزيد عما كانت أعرف من قبل"

**الفهم:**

   إن حياة الإنسان معرضة للعديد من التغيرات والتحولات، والتي تشمل جوانب عدة من حياته ومن شخصيته، كما يعرف تقلبا في بنيته العضوية وفي العواطف والانفعالات، ذلك تبعا لتغير المراحل العمرية والظروف الاجتماعية والبنيات الثقافية التي ينشأ فيها. لكن، وعلى الرغم من كل تلك التغيرات، يظل الشخص هو هو أي على وعي تام بأنه هو نفسه. هذا العنصر الذي يجعل الإنسان قادرا على إدراك ذاته باستمرار يمكن أن نسميه "الهوية". وقد تعدد المواقف وتضاربت الآراء والتصورات حول الأساس الذي تقوم عليه هوية الشخص الشيء الذي جعل منها واحدة من أبرز القضايا الفلسفية والإشكالية التي تدخل ضمن المجال الفلسفي الأنطولوجي الذي تحيلنا عليه مجزوءة "الوضع البشري"، وبالتحديد ضمن مفهوم " الشخص" كمفهوم أساسي ومركزي. ومن خلال كل ذلك يمكننا صياغة الإشكال المركزي الذي يطرحه النص وتحيل عليه قضية الهوية من خلال التساؤلات التالية: ما هو الأساس الذي تقوم عليه هوية الشخص؟ هل تقوم على الوحدة والمطابقة أم على التعدد والاختلاف؟ هل تقوم هوية الشخص على وحدة الأنا وتطابقها مع الفكر أم على الشعور والذاكرة؟ وما هو الطابع الذي يميز هوية الشخص؟ ما هي سيرورة ومسار تشكل هذه الهوية؟ وبأي معنى يمكن اعتبار الفكر أساسا لهوية الشخص؟ وأخيرا إلى أي حد يمكننا الاتفاق مع صاحب النص فيما ذهب إليه؟

**التحليل:**

   من خلال القراءة الفاحصة للنص ومن مؤشراته المفاهيمية يتضح أنه النص يتبنى أطروحة أساسية مفادها أن الأساس الذي تقوم عليه هوية الشخص هو الفكر بما هو جوهر الأنا الذي يتميز بمجموعة من الخصائص التي تحقق للشخص وعيه بذاته وإدراكه لحقيقة وجوده. ولشرح هذه الأطروحة وتوضيحها ننطلق مع صاحب النص من مجموعة من القضايا والأفكار؛ فهو في البداية يعتبر أن الفكر يشكل جوهر الأنا الذي يتميز بمجموعة من الخصائص والصفات التي هي جزء من طبيعته ولا تنفصل عنه من قبيل (الشك، الفهم، التخيل، الإثبات، النفي، الإرادة، الإحساس). إن هذا الارتباط بين الفكر وخصائصه هم ما يحقق وحده الشخص وتطابقه مع ذاته، بحيث لا يمكن للذات أن تفكر دون أن تعي بأنها هي التي تفكر. وكنتيجة لهذا الوعي بالذات عبر خاصية التفكير، يدرك الشخص حقيقة وجوده اليقيني والثابت القادر على الاستمرارية والصمود أمام كل محاولات الخداع والتضليل، ليصل صاحب النص إلى نتيجة أن كل ما لدينا من معارف وأفكار حول أنفسنا وحول الأشياء المحيطة بنا إنما مصدره الفكر وليس أي عنصر آخر.

   يتمحور النص حول بنية مفاهيمية تدور في مجملها حول ثلاثة مفاهيم مركزية وأساسية وهي، الفكر، الشك، الأنا (الشخص)؛ فالفكر من معانيه أنه جوهر ثابت أو نور فطري خاصيته الأساسية التفكير، بالإضافة إلى مفهوم الشك الذي هو مساءلة الفكر عن قيمة الأحكام التي يصدرها، وعبر هذه المساءلة يتحقق التطابق بين الأنا (الشخص ونفسه ويكون قادرا على تحقيق إدراك يقيني وثابت لوجوده. وهذا ما يختزله الكوجيطو الديكارتي "أنا أشك أنا أفكر، إذن أنا موجود" كما أن الشك هو بداية التأمل العقلي وخطوته الأساسية. أما الأنا أو الشخص فيحيل من بين ما يحيل عليه إلى الذات الواعية والحرة والمسؤولة، كما يشير إلى مجموع المحددات الماهوية للكائن البشري.

   واضح أن بنية النص الحجاجية التي اعتمدها صاحب النص يغلب عليه طابع الاستدلال المنطقي، إذا اعتمد مبدأ التدرج المنطقي عبر استدلال تحليلي تطلب منه التساؤل (عن ماهية الأنا، وعن خصائص الفكر...) والاستنكار (ألست أنا الشخص نفسه.. لم لا تكون كلها من خصائص طبيعتي...) والتعريف (أنا شيء مفكر.. انه شيء يشك ويفهم ويتخيل ويثبت...) قبل أن يخلص إلى استنتاج مفاده أن الشخص وعبر جوهره المفكر وتطابق هذا الفكر مع خصائصه أصبح يعرف نفسه أكثر من أي وقت مضى. وبالتالي المحدد الأساسي لهوية الشخص هو الفكر.

**المناقشة:**

   إن الموقف الذي سبق تحليله لا يمكن إنكار أهميته وقيمته، سواء في بعده الفلسفي أو بعده الفكري والإنساني، فالموقف الديكارتي يعكس تصورا وجوديا للإنسان، يرتكز على خاصية الشك/التفكير الذي هو رفض للرضوخ والتبعية وفي جوهره دعوة التحرر، خاصة عندما يتم وضع هذا الموقف في سياقه التاريخي حيث كان الإنسان يعيش استلابا نتيجة الهيمنة والسيطرة التي كان يعيشها الإنسان خلال القرون الوسطى وبداية عصر النهضة. وهذه ما يعطي لهذا الموقف قيمة فلسفية تبرز في قدرة الشخص على تأسيس هويته الشخصية المستقلة بالاعتماد على فكره، ودونما الحاجة إلى وصاية خارجية. لكن مع ذلك تظل أطروحة صاحب النص محدودة من حيث أنها لم تقدم جوابا شاملا عن الإشكال، ونظرا لكونها جعلت الذات منغلقة على نفسها، دونما أي اعتبار للجانب الحسي الإدراكي الذي لا يمكن تجاوزه في تأسيس هوية الشخص. فكيف يمكن أن يكون الإدراك الحسي أساسا لهوية الشخص؟ وكيف تسهم الذاكرة في ضمان استمرارية هذه الهوية؟ ألا تشكل كل تلك الأسس مرتكزا للإرادة؟

   ولزيادة تعميق النقاش حول مسألة هوية الشخص وتحقيق معالجة شاملة للإشكال نستحضر موافق فلسفية أخرى تعطي أبعاد أخرى للإشكال، وذلك باستحضار الموقف الذي تبنته الفلسفة التجريبية بشكل عام و"جون لوك" بشكل خاص. فالأساس الذي تقوم عليه هوية الشخص عند جون لوك هو وحدة الشعور والذاكرة، فوعي الشخص بذاته وبوجوده يتحقق من خلال الإدراك الحسي التي تربط الشخص بواقعة الحسي التجريبي، بالإضافة إلى عنصر الذاكرة التي تضفي على هوية الشخص طابع التطابق والاستمرارية في الزمان؛ فالإنسان يولد وعقله خال تماما من أية أفكار فطرية، إذ يكون عبارة عن صفحة بيضاء قبل أن تكتبها الحواس. يقول جون لوك: "إن العقل البشري أشبه بصفحة بيضاء، وكل ما لدينا من أفكار مصدره التجربة الحسية". غير أنه وإن كان العقل بالنسبة للتجريبيين وجون لوك عبارة عن صفحة بيضاء فهو عند العقلانيين ومن بينهم ديكارت بمثابة النور الفطري الذي يحتوي على أفكار فطرية تمكن الذات من إدراك ذاتها دون أي وساطة للحواس. غير أن شوبنهاور له تصور آخر فكل من العقل والحواس إنما هي مجرد وسيلة في يد الإرادة، فالإرادة عنده هي أساس هوية الشخص فهي العنصر الذي لا يتأثر بالزمن وهي التي تشك نوات وجود الشخص وبذلك فهوية الشخص عنده تتأسس على الإرادة.

**التركيب:**

   بعد تحليلنا ومناقشتنا لهذا النص يمكن أن نقول أنه من الخطأ الاعتقاد بأن هذه المقاربة الجزئية قد مكنتنا من تغطية الأبعاد الإشكالية والمعرفية لقضية الشخص والهوية داخل المجال الفلسفي، لكن مقاربتنا انصبت على وجهات نظر مختلفة، فتطرقنا خلال العرض إلى موقف ولعله موقف قريب من العقلانية التي والتي تؤسس الهوية على عنصر الفكر، وتوقفنا كذلك مع التجريبية التي يبقى من أبرز روادها الفيلسوف الانجليزي جون لوك الذي ركز في أطروحته على علاقة الشخص بواقعه الحسي عبر وساطة الحواس وأهمية الذاكرة، لإضافة إلى ذلك حاولنا الوقوف عند تصور "شوبنهار" الذي كان متجاوزا لكل من التصور العقلاني والتجريبي من خلال تأسيسه للذاكرة على الإرادة واعتبار كل من العقل والتجربة إنما مجرد وسائل خادمة للإرادة. لكن يمكننا القول بأن هوية الشخص يتميز بالطابع التركيبي فسيكون من الخطأ حصر أساس الهوية في الفكر وحده او الشعور وحده أو الإرادة، فالذات الإنسانية ذات مركبة وبالتالي فالهوية الشخصية بالضرورة مركبة.